كتاب سيبويه والعلوم الإسلامية
(قراءة في الدراسات المعاصرة)

المدرس المساعد ياسمين عدنان نعمه
الجامعة العراقية / كلية العلوم الإسلامية
قسم اللغة العربية

The Book Of Sibawayh And Islamic Sciences

(Reading In Contemporary Studies)

Assistant Professor : Yasameen Adnan Neamah
Degree: Phd
Aliraqia University /College Of Islamic Sciences
Department Of Arabic Language
Yasameen.a.neamah@Aliraqia.edu.iq

المستخلص

الحمدُ للهِ ربِّ المخلوقين، وحبيبِ قلوبِ المخلصينَ، نستعين بكَ، ونتوكَّل عليكَ، ونصلِّي على حبيبكَ محمَّد وآلهِ ونسلِّمُ عليه . أمَّا بعدُ :

من يطَّلع على هذا البحث يجد قراءة جديدة من شأنها أن تبيِّن حصيلة ما انتهت إليه القراءات المعاصرة بخصوص مسألة الترابط والصِّلة بين علم النحو _ ولا سيَّما ما تضمَّنه كتاب سيبويه _ رحمه اللهُ _ منه _ والعلوم الإسلامية . نظرًا لكون هذا التداخل المعرفي جعل لسيبويه طريقة خاصة محكمة في طرح المادة النحوية يسَّرت وصوله إلى هدفه وغايته من تقعيد قواعد اللغة العربية وهي خدمة كلام الله _ سبحانه وتعالى _، فضلا عن أنَّها رسمت لأصحاب تلك العلوم _ اللاحقين _ مسارات واضحة عند تناولهم للخطاب القرآني من وجهة النظر اللغويَّة . وعليه ستنتظم هذه القراءة في توطئة وتقسيمات رئيسة وردت على الشكل الآتي :

١_ نحو الكتاب وعلم الحديث، ٢_ نحو الكتاب وعلم التفسير ، ٣_ نحو الكتاب والقراءات القرآنية، ٤_ نحو الكتاب وعلم الفقه وأُصوله، ٥_ نحو الكتاب وعلم البلاغة.

Abstract :

Praise be to Allah , Lord of creation, and Beloved of the hearts

Of the sincere . We seek Your help, we trust in You, and we pray and send peace upon Your beloved Muhammad and his family.

Now then :

Whoever peruses this research will find a new reading that will clarify the outcome of contemporary readings regarding the issue of the connection and relationship between grammar , especially what is included in the book of Sibawayh _ may God have mercy on him _ and the Islamic sciences . This is due to the fact that this cognitive overlap made Sibawayh a special, rigorous method for presenting grammatical material, which facilitated his achievement of his goal of establishing the rules of the Arabic language , which is to serve the speech of God Almighty .

Moreover, it outlined for the subsequent masters of these sciences clear paths for the Qur'anic discourse from a linguistic perspective . This reading will be organized into divisions and sections, and will be based on the following :

_The Book grammar and the science of hadith .

_The Book grammar and Interpretation Science .

_The Book grammar and Qur'anic readings

_The Book grammar and Qur'anic readings .

_The Book grammar and the science of jurisprudence and its principles,

_ The Book grammar and the science of rhetoric .

التوطِّئة

انطلقت هذه القراءة المعاصرة من منهج واضح رسم حدودها التي تجعلها مؤدِّيَّة إلى الغرض الذي وضعتها الباحثة من أجله وهو تسليط الضوء على وجات النظر المتعددة المعاصرة _ فيما يخصُّ مسألة التأثُّر والتأثير بين ما جاء في كتاب سيبويه وما جاء في نتاج العلوم الإسلاميَّة .

من الثابت في القراءة المعاصرة أنَّ مكوِّنات خطاب سيبويه النحوي ثلاثةٌ، هي : الموضوع والغاية والثمرة، فموضوعه المفردات العربية من حيث طروء الأحوال عليها حال إفرادها وحال تركيبها، وغايته الاستعانة على فهم النص القرآني والحديث الشريف وتجنب الخطأ في الكلام، وفائدته معرفة صواب الكلام من خطئه ((١)) . بتعبير آخر تجد خطاب الكتاب سار وفق أساس غائي وظيفي، ارتبط بالجوهر العقدي الذي كان بدوره المحفِّز لإنتاج العلوم الإسلامية ألا وهو فهم النصوص الشرعية، ونظرا لوجود ذلك العامل المشترك في الوسطين اللغوي والديني حرص الباحثون المعاصرون على رصد مواطن التأثر والتأثير بين كتاب سيبويه وما وجد في تلك العلوم ((٢)) .

وقد تلمست بعض القراءات المعاصرة التهدي إلى (مفهوم النحو) في الكتاب، الذي يعدُّ حصيلة مرحلة علمية معيَّنة نقلها سيبويه بأمانة وشذَّبها وأضاف إليها، من أجل بسط القول في نظم لغتنا العربية ليمثِّل وسيلة من وسائل فهم النصوص الشرعية؛ لأنَّ خطاب كتاب سيبويه سار وفق أساس وظيفي غائي ((٣)). فمن الملاحظ أنَّ مادة الكتاب جاء النحو فيها « يطابق (علم العربية) بجوانبه الثلاثة : الأصوات، والأبنية، والتراكيب « ((٤)) .

(١) ينظر : حاشية الصبان : ١/ ١٥، ونحو كتاب سيبويه : ١١٠_ ١١١.

(٢) ينظر : نحو كتاب سيبويه : ١١١

(٣) ينظر : نحو كتاب سيبويه، د. علي بن موسى بن محمد شبير ، ٩٧ ، مركزية سيبويه في الثقافة العربية، أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظَّمتها شعبة اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب بتطوان ١٤_ ١٥ ربيع الأول ١٤٣٨هـ_ ٢٠١٦م .

(٤) نحو كتاب سيبويه : ٩٩

ولم يخلُ كتابه من مباحث التفسير((١))، والحديث ومصطلحه ((٢)) ، وعلم القراءات ((٣)) ، والفقه وأُصوله ((٤)) ، ومن مباحث البلاغة ((٥)) : البيان والمعاني ((٦)) ، ولهجات العرب، والعروض والشعر وعلومه ((٧)) . ومن مظاهر التزام سيبويه الديني وأثره : « الأول مسألة لفظ الجلالة « الله» أعرف المعارف، الثاني : حديثه عن « كان « عند دخولها على أسماء الله وصفاته وأنَّها مرادفة للفعل « لم يزل «، الثالث : الألفاظ الخاصة بتعظيم الله تعالى عند سيبويه، الرابع : تنزيهه الله عن ما لا يليق به وتخريجه بعض الآيات بما يليق بالله وصفاته، الخامس : علاقة الإيمان بالنفس عند سيبويه، السادس : الأفعال في نحو : « اهْدِنَا «((٨)) « اعفُ عنَّا « ((٩)) « اغْفِرْ لَنَا « ((١٠)) وفي نحو : « لَا تُؤَاخِذْنَا « ((١١)) وَ « لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا « ((١٢)) لا يجوز تسميتها أفعال أمر أو أفعال نهي، وإنَّما هي : أفعال دعاء « ((١٣)) . ونظرًا للنية الطيبة « سيبقى كتاب سيبويه عملًا صالحًا، وذكرًا باقيًّا، ومنارًا هاديًا، ما بقي نحو يدرس على وجه الأرض «((١٤)). وبناءً على أهمية هذا التنوع في المادة النحوية لا نعدم وجود قراءات معاصرة رصدت ملامح التأثُّر والتأثير بالعلوم الإسلامية : منها قراءات رصدت علاقة التأثر والتأثير بين :

١_ نحو الكتاب وعلم الحديث : من الثابت في سيرة سيبويه _ رحمه الله _ أنَّه ولد في البيضاء وهي قرية في مدينة شيراز في فارس، ثم انتقل إلى البصرة ونشأ فيها، وقد بدأ تعلُّمه بطلب الحديث والفقه أي : بتلقي العلوم الشرعية ((١٥))، قال البغدادي : « كان سيبويه في أول

(١) ينظر : مقال (جهود سيبويه في التفسير) ، د. محمد أحمد الخراط ، نحو كتاب سيبويه : ٩٩
(٢) ينظر : مقال (أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه) د. بان صالح مهدي ، نحو كتاب سيبويه : ٩٩
(٣) ينظر : سيبويه والقراءات، أحمد مكي الأنصاري، نحو كتاب سيبويه : ٩٩
(٤) ينظر مقال (أثر سيبويه في الدرس الأُصولي) ، عادل فتحي رياض ، نحو كتاب سيبويه : ٩٩
(٥) نحو كتاب سيبويه : ٩٩
(٦) ينظر : كتاب أثر النحاة في البحث البلاغي : ٦٧_ ١٣١، ونحو كتاب سيبويه : ١٠٠
(٧) ينظر : نحو كتاب سيبويه : ١٠٠
(٨) سورة الفاتحة : ٦
(٩) سورة البقرة : ٢٨٦
(١٠) السورة نفسها : الآية نفسها .
(١١) السورة نفسها : الآية نفسها .
(١٢) السورة نفسها : الآية نفسها .
(١٣) التزام سيبويه الديني، مظاهره وأثره، من أعمال الندوة الموسومة بـ (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) : ٤٨٤
(١٤) ()التزام سيبويه الديني، مظاهره وأثره، من أعمال الندوة الموسومة بـ (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) :٤٨٣.
(١٥) ينظر : طبقات النحويين واللغويين : ٦٦، وتاريخ بغداد : ١٤/ ٩٩

أيامه يصحب الفقهاء ، وأهل الحديث « [(١)] ، ومن المعروف أنَّه التحق بحلقة شيخ البصرة إمام الحديث حماد بن سلمة البصري (ت١٦٧هـ) ولازمه حتى حدثت بينهما مواقف، نجد خلاصتها في بعض الروايات التي ذكرت أنَّ سيبويه قد أكثر من الأخذ عن حماد، وكتب عنه الأحاديث، وذكرت أنَّه وقع في بعض الأخطاء اللغوية والنحوية في أثناء كتابته، وبسببها طلب علم النحو والتحق بالخليل والأخفش الأكبر وغيرهما ، ... ، وذكرت الروايات أنَّه لما انتقده حماد بن سلمة كسر القلم، وقال : « لا أكتب شيئًا حتى أحكم العربية «[(٢)] ، « لا جرم والله؛ لأطلبنَّ علما لا تلحنني معه «[(٣)] ، ومقولتاه تدلان على أنَّه كان يريد تعلم اللغة العربية ومن ثم الرجوع إلى طلب العلوم الشرعية، وقد تكون منيته حالت دون هذا، وقد أشارت الروايات إلى أنَّه كان مستقيمًا في حياته، ذاكرًا لله، وأنَّه كان يتمثَّل بهذا البيت عند وفاته :

يسر الفتى ما كان قدم من تقى إذا عرف الداءَ الذي هو قاتله [(٤)].

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ دراسته للحديث قبل أن يلج البحث في علم النحو أثَّرت بشكل ملحوظ على مصطلحاته ومفاهيمه وأدواته؛ لأنَّ البشر بطبيعتهم يسخرون ما في أذهانهم من تراكم معرفي لترسيخ أفكارهم وبما أنَّ شخصيته استوت على الأُسس الحديثية في منظومته الفكرية فقد ظهرت آثار هذه الأُسس في المنهج الذي رسمه لنفسه في التأليف النحوي متمثلا في التأثر بآداب المحدِّثين وبطرائق تحمل الحديث، وبأنواع الحديث، فضلا عن المصطلحات [(٥)]. « وتأثره بالآداب الذاتية التي أخذها عن علماء الحديث التي يجب أن تتوافر في المحدِّث، وفي طالب الحديث، وهي في الأعم الأغلب عندهم صفتان : _ الإخلاص وتصحيح النية : .... وخلوص النية صفة نجدها ملاصقة لسيبويه، لكونه قد درس الحديث أولا فتشبع بها وكانت ملازمة له، فلم يتقرب من سلطان ولم تكن الغاية من تعلم علوم العربية والبروع فيها أن يحصل على مكاسب مادية أو دنيوية وإنَّما كان الهدف الأساسي من تعلمه هذه العلوم أن يبتعد عن اللحن في الحديث . .. _ الملازمة والدأب : ... وإذا ما عدنا إلى سيبويه نجده بحق قد طبَّق هذه الصفة تطبيقا عمليا _ أعني الملازمة _ فكان ملازما لشيخه الخليل دائبًا على صحبته « [(٦)]، وقد ذكر

(١) تاريخ بغداد :١٤/ ٩٩

(٢) مجالس العلماء للزجاجي : ١١٨، والتزام سيبويه الديني مظاهره وأثره : ٤٨٧

(٣) مجالس العلماء : ١١٨

(٤) ينظر : معجم الأُدباء : ٥/ ٢١٢٧، والتزام سيبويه الديني مظاهره وأثره : ٤٨٧

(٥) ينظر : أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه، د. بان صالح مهدي، مجلة العميد، المجلد الثاني / العددان الثالث والرابع، تشرين الثاني / ٢٠١٢: ٦٢_ ٦٣

(٦) أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٦_ ٦٧

ابن الأنباري ذلك، فقال : « إنَّه قد برز من أصحاب الخليل أربعة : عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر المعروف بسيبويه، والنضر بن شميل، وعلي بن نصر الجهمي، ومؤرج السدوسي . وكان أبرعهم في النحو سيبويه « ((١)) . وقال ابن النظار : « كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه، فقال الخليل : مرحبًا بزائر لا يمل « ((٢)) . ومن المعلوم أنَّ الدأب على ملازمة شيخه جعلته متأملا وواعيا ومستمرا في مراجعة ما أخذه منه ولعلَّ من أعزِّ ما جناه سيبويه من تلك الملازمة ثمرة كتابه ((٣)). أمَّا طرائق التحمل التي تأثَّر بها فمنها : « السماع : ... ولا خلاف بين العلماء أنَّه يجوز في هذا أن يقول الآخذ عن الشيخ : حدَّثنا، وأخبرنا، وأنبأنا، أو سمعت فلانا يقول وقال لنا فلان . ويرى الخطيب البغدادي « أنَّ أرفع العبارات في ذلك : سمعت ثم حدثنا وحدثني « ((٤)) . ... ، وعلى تعبير يحيى بن القطان «ليست (حدَّثنا) بنص في أنَّ قائلها قد سمع « ((٥)) وقد جسَّد سيبويه هذه المصطلحات في كتابه وما عنى به المحدثون هو ذاته ما عناه سيبويه فلم يستعملها إلا في المواضع التي حكموا باستعمالها فيه . فقد استعمل لفظة (سمعت) و(سمعنا) في الموقع الذي سمع فعلا من العرب ولم يستعملها في غيره . ... ، قال « سمعت ذلك ممن يوثق بعلمه « ((٦))، في حين يستعمل لفظة (حدثني) و(حدثنا) في مواضع تدلُّ على أنَّه لم يسمع مباشرة من العرب وإنَّما كان السماع بواسطة أي أن شيخه حدثه بذلك وهذا مصداق لقوله « حدثني بذلك يونس « ((٧)) . وقال

« حدثنا أبو الخطاب « ((٨)) . وهذا وافدًا له من علم الحديث أيضًا « ((٩)) . أمَّا فيما يخصّ تأثره بمصطلحات المحدثين فقد سلَّطت القراءة المعاصرة الضوء على هذا ووضَّحت لنا أنَّ التقسيم الثلاثي الرئيس للحديث والذي يشمل الأقسام الآتية : ١_ حديث ضعيف ، ٢_ حديث صحيح ، ٣_ حديث حسن . هناك أصداء واضحة لها في صفحات الكتاب فقد نقلها صاحبه من علم الحديث لتدخل درس علم النحو . فأطلق مصطلح الحسن على بعض التراكيب اللغوية

(١) مجالس العلماء للزجاجي : ١٥٤، وينظر : أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٧_ ٦٨

(٢) التقييد والإيضاح، شرح مقدمة ابن الصلاح، الشهرزوري : ٢٥١، وأثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٨

(٣) ينظر : أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٨

(٤) طبقات النحويين واللغويين : ٦٨، وأثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه (بحث) : ٦٩

(٥) الخلاصة في أُصول الحديث : ١٠٠، وأثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٩

(٦) الكتاب : ١/ ٤٠٧، وأثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٩

(٧) الكتاب : ١/ ٤٣٢، وأثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٩

(٨) الكتاب : ٢/ ٢٧، ٢٩، وأثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٩

(٩) أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٦٩

والنحوية كما صنع المحدِّثون) (١))، ورد هذا في قوله : «هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسن، ... «((٢)). أمَّا استعمال (الضعيف) فهو أيضا ليس بالقليل ومنه ما ورد في قوله : « فهذا ضعيف والوجه الأكثر الأعرف النصب « ((٣)). وشأن مصطلح (الصحيح) شأن المصطلحات السابقة التي أخذها من المحدِّثين ووظَّفها في وصفه لبعض أصناف الكلام العربي، وهذا نحو قوله : « وتقول في شيء منه آخر أيُّ من أن يأتنا نعطه نكرمه فهذا إن جعلته استفهاما فإعرابه الرفع وهو كلام صحيح «((٤)) . ويجد القارئ فكرة واضحة وهي (ما قيِّد بثقة) المنحدرة من منهج المحدِّثين في كتاب سيبويه؛ إذ تطالعنا في مواضع متعددة، ومنها قوله : « سمعنا بعض العرب الموثوق به «((٥)) . وهناك مصطلح آخر وهو الشذوذ من المصطلحات المتداولة في أوساط أصحاب الحديث استعمله سيبويه كثيرا في كتابه، وأفرد له في بعض الأحيان بابًا، فقال : « هذا باب ما كان شاذًّا ممَّا خففوا على ألسنتهم وليس بمطرد « ((٦)). وكثرة استعمال الشاذ في كتابه ما هو إلا من أثر العلم الذي تعلمه ابتداء وهو علم الحديث ((٧)). ويبدو أنَّ الباحث المعاصر لم يغفل عن الفوارق يتضح ذلك من قول الدكتور عبد العزيز « إلا أنَّ هذا ليس معناه توظيف هذه المصطلحات بالطريقة نفسها لدى المحدثين وإنَّما أخضعها اللغويون لمقتضيات الممارسة اللغوية ولذا من الطبيعي أن تتغاير مضامينها من سياقها العلمي السابق إلى السياق العلمي الجديد « ((٨)) . ومن وجهة نظره « ترجع أهمية البحث في هذا الموضوع للثقل الذي يحضر به المصطلح ذو الخلفية الحديثية ضمن مصطلح الكتاب، فقد غطَّى مساحة كبيرة بالنظر إلى باقي المصطلحات مع درجة كبيرة في الورود، حيث ناهز الأربعين مصطلحا أغلبها مصطلحات ذات ضمائم متعددة ومتنوعة مع كونها تتحرك مفهوميا في دائرة مصادر الأدلة التي يستدل بها سيبويه في سياق الاحتجاج للقواعد والتي لا تخرج على كلِّ حال عن مصدرين أساسين : كلام الله تعالى (القرآن) وكلام العرب من شعر ونثر «((٩)) . وقال « ذهب

(١) ينظر : أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه: ٧٠
(٢) الكتاب : ١/ ٢٥
(٣) المصدر نفسه : ١/ ١٢٥
(٤) المصدر نفسه : ١/ ٨٦
(٥) المصدر نفسه : ١/ ١٢٢
(٦) المصدر نفسه : ٣/ ٢١٣
(٧) ينظر : أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه : ٧٠_ ٧٥
(٨) أثر المرجعية الحديثية في المصطلح السيبويهي (بحث) للدكتور : عبد العزيز احميد، دراسات مصطلحية، العدد الأول ، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م : ١٣١
(٩) المصدر نفسه : ١٣٢

سيبويه في أحكامه التصويبية مذهب المحدثين في تقصي جزئيات الألفاظ اللغوية وتفصيلاتها تقصيا يتميز بتتبع كلِّ واردة حتى توفرت في الكتاب مادة اصطلاحية غزيرة تكون معجما خاصا بهذه الأحكام تتنوع مادته تنوع مصطلحات أصناف الحديث عند المحدثين وإن لم يصرِّح بمصطلحات المحدثين بأعيانها فقد صرَّح بها في المعنى وهو موقف يتساوق مع مواقف اللغويين والنحاة العرب الذين كانوا يحرصون على الاستفادة من مصطلح الحديث « ((١)) في توثيق المادة اللغوية ((٢)).

٢_ نحوُ الكتاب وعلم التفسير : من الملاحظ أنَّ أبا بشر ذكر مصطلح (المفسِّرين) في أربعة مواطن من كتابه، ممَّا يشير إلى قربه من المفسرين، وحواره معهم ((٣)) . ومن الملاحظ أيضًا أنَّ سيبويه وقف عند بعض الآيات المباركة المختارة، وقلَّب فكره في معانيها، وعلَّل لما رجحه منها، وهو بذلك أصَّل بها مسائل النحو، وبنى بها قواعد اللغة العربية، الأمر الذي جعل منجزه باكورة النظر في تحليل كلام الله _عزَّ وجلَّ_ ، وتفسيره، بناءً على تراكيب جمله ووضع مفرداته، ممهِّدًا السبيل للتفسير غير الأثري ((٤)) . و « لعلَّ سيبويه من أوائل من أرسوا قواعد حلِّ (مشكل القرآن)، وقدَّم في كتابه نماذج متعددة أفاد منها العلماء في تحرير مصنفاتهم التي توالت من بعده « ((٥)). وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ العناية بلغة القرآن الكريم أدَّت إلى نشوء فنون وعلوم منها « علمُ إعراب القرآن أحد علوم القرآن، ... ، ويطلب هذا الإعراب من علم النحو، وهو مهم جدًا لمفسِّر كتاب الله تعالى؛ لأنَّ الإعراب فرع المعنى، وهو يؤثِّرُ على معنى الآية، ولذلك قد يختلف تفسير الآية تبعًا لاختلاف إعرابها، فبين التفسير والإعراب ازدواج، فالمفسِّر لازمٌ عليه معرفة إعراب الآية، والمعرب لازمٌ عليه معرفةُ تفسير الآية « ((٦)) . ولقد خلص أحد الباحثين من النظر في صلة التفسير بالإعراب إلى أُمور، أهمها : افتراض تقبُّل كلِّ تراكيب القرآن الكريم لمقولات النحو هو أمر

(١) أثر المرجعية الحديثية في المصطلح السيبويهي : الصفحة نفسها

(٢) ينظر : دراسات لغوية : ٢٤، وينظر : أثر المرجعية الحديثية في المصطلح السيبويهي : ١٣٢

(٣) ينظر : جهود سيبويه في التفسير : ٦٦، ونحو كتاب سيبويه : ١٠٠

(٤) ينظر : دراسات في كتاب سيبويه : ١٢، والشاهد وأُصول النحو في كتاب سيبويه : ٣٢، والنحو وكتب التفسير : ١/ ١٠١ ، ونحو كتاب سيبويه : ١٠٠

(٥) جهود سيبويه في التفسير : ٦٦ " ومن الكتب التي أفادت من سيبويه في مسائل المشكل من إعراب القرآن وأكثرت من النقل عن ذكره والإشارة إليه والتهدي برأيه وتوجيهه، كتاب مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي (١٢١ موضعا)، وكتاب كشف المشكلات وإيضاح المعضلات، لأبي الحسن الباقولي (١٠٣ موضع) " هامش (١) نحو كتاب سيبويه : ١٠١

(٦) مفاتيح التفسير، معجم شامل لما يهم المفسر معرفته من أُصول التفسير وقواعده، ومصطلحاته، ومهماته، أ. د. / محمد سعيد الخطيب، دار التدمرية، دار ابن حزم، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣١هـ _ ٢٠١٠م ، ١/ ١٤٩.

خاطئ منهجيًّا . وأنَّ لغة كلام الله أوسع من القواعد النحوية . وأنَّ الأمر الحقّ مع شاذٍّ لغة كتاب الله عن الاطراد والقياس هو الرجوع به إلى اللغوي أو النحوي ينظر فيه بإعمال مقولات نحوية أُخرى من مثل : التوسع والترخُّص والتوهُّم ((١)). وهذا كله يعزِّز قول من قال : « إنَّ للقرآن الكريم أُسلوبًا من النحو ينبغي أن يقاس عليه، ولا يقاس هو على غيره، وذلك إذا صحَّ سند القراءة، ووافقت رسم أحد المصاحف العثمانية، فليصحِّح النحاة قواعدهم، وليصوغوها كما صاغها القرآن الكريم، فإنَّه النص الوحيد المقطوع بصحته، المتواتر في روايته « ((٢)) . وقد حاول الكشف عن المبادئ المنهجية التي التزم بها سيبويه في بحثه للغة القرآن الكريم وبتعبير آخر الكشف عن مدى معرفة سيبويه بحدود صنعته في أثناء النظر في النص القرآني مبينا ذلك عن طريق بسط القول في مسألتين بارزتين من مسائل مشكل الإعراب سنعرض لإحداهما لتوضيح ذلك الجهد : المسألة هي : في تحديد وجه الأداة (إنَّ) من عزَّ وجلَّ : { إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ }((٣)) : وقد صرَّح الباحث « اللافت للنظر عندنا أنَّ سيبويه وهو العارف بمكان الآية، لم نر له شيئين : _ أولهما : أنَّه لم يشارك في توجيهها، على الرغم من تناقل الاشتغال بها عند بعض متقدِّميه، ومنهم : ١_ أبو عمرو بن العلاء، وهو من الإقراء من هو، وقد نقل عنه تغليط الكاتب فيها، وأنَّه غلط ستصلحه العرب بألسنتها ((٤)). ٢_ أبو الخطاب الأخفش الكبير، وقوله فيها الحمل على اللهجة الكنانية ((٥)). ونقول سيبويه عن أبي الخطاب كثيرة، فقد بلغت (٤٧) مرة بل إنَّ بعض من بحث أبا الخطاب اعتمد نقول سيبويه عنه بصورة كبيرة، ومع ذلك لم نلقَ سيبويه أبدى رأيا في المسألة، وغاية ما هنالك أنَّه صحَّح مجيء الحرف (إنَّ) بمعنى (أجل) في كلام العرب، قال: « وأمَّا قول العرب في الجواب (إنَّه)، فهو بمنزلة (أجل)، وإذا وصلتَ قلتَ : إنَّ يا فتى، وهي التي بمنزلة أجل . ... ونحنُ نفسِّر هذا بمعرفة الرجل حدود صنعته، ومشمولات فنِّه، فهو، وإن صحَّح صلاحية إنَّ للجواب، إلا أنَّه لم يشأ أن يشارك بما علمه عنها في توجيه الآية الكريمة، وهذا معناه أنَّه لا يراها جوابية فيها، وإلا فما أحراه بأن يحتج بها حيث احتجَّ بالبيتين السابقين، فبقي أنَّه يراها إمَّا التي للتوكيد، وأنَّ المثنى معها في لغة القصر على كلام بني الحارث بن كعب، وهو، في هذا، آخذ، ربَّما، برأي شيخه أبي الخطاب، وإمَّا أنَّه يراها مسألةً في التفسير، ويلزم

(١) ينظر : مركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٤٥٠_ ٤٥١

(٢) القراءات واللهجات : ١٤٩، ولغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم : ٢٥٤، ومركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٤٧٩ .

(٣) سورة طه : ٦٣

(٤) ينظر : مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني : ٢٧٤

(٥) ينظر : حجة القراءات لابن زنجلة : ٤٥٤

لها التوفر على ثقافة أُصولية خاصة، هو معها أحد رجلين، غير المتوفِّر عليها، أو هو التاركها لغيره رعيًا لحدود التخصص .

ونحنُ، في كلِّ ذلك، نرى لسيبويه موقف العالم الحق بما صنع، ولقد اجتهدنا، هناك، في بيان أنَّ كثيرا من أئمة اللغة ورجال التفسير قد تكلَّموا في الآية بما رمى نظرهم بالانحراف عن أُصول التفسير، وقواعده، فالخلاصة أنَّ لسيبويه من المسألة موقع الناجي ممَّا شاب أنظار أُولئك . بل لعلَّنا نجزم بأنَّ إمامة سيبويه إنَّما أتت من هذا المعنى بالذات، معنى كونه رجلًا عارفًا تمام المعرفة بحدود علمه، ومشمولات فنِّه . وهو، في هذا، يقدِّم نموذجًا رائدًا لضرورة الإلمام بمنطق كلِّ خطاب قبل إبداء الرأي في مسائله، وأسئلته، ويصوغ منهجًا عمليا رصينا في وصل ما بين النص القرآني، والعلوم اللغوية، نحسب أنَّا نظلُّ دائما في حاجة إلى من يعلمنا إيَّاه بصورة عملية متينة، وهذا الأمر هو بعض ما يظهر مركزية سيبويه في الثقافة العربية الإسلامية، ويبرز إمكانيات جديدة لقراءة نظرية سيبويه اللغوية قراءة متجددة تصلح أن تبنى منها لغويَّات عربية جديدة أبرز وجوه جدتها معرفة : ما الخطاب قبل تحليل الخطاب « ((١)). هنا نستنتج حقيقة مفادها : لا بدَّ من ضبط العلاقة بين علوم اللغة وبين علم التفسير وفق الصورة التي ينتج معها في الذهن أنَّ النحو لا يرادف التفسير وأنَّ أبا بشر مثال فذّ للنحوي المشارك في تفسير القرآن بتسخير الآلة اللسانية في توجيه أساليب النص القرآني المبارك وتخريج تراكيبه ((٢)). وقد قال أبو حيان في تفسيره _ في معرض ثنائه على أبي بشر رحمه الله _ : « فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير، وترقَّت إلى التحقيق فيه والتحرير، أن يعتكف على كتاب سيبويه، فهو في هذا الفن المعوَّل عليه، والمستند في حلِّ المشكلات إليه « ((٣)) ، ومن نظر في كتابه بتمعن بدا له أنَّه وهو يتناول المسائل النحوية قد جعل المصحف الشريف بين يديه، واستشهد بآية أو أكثر في كثير من هذه المسائل، وعبارة « ومثل ذلك كثير في القرآن « وأشباهها في كتابه تكررت كثيرًا((٤))، وقد بلغت الآيات المباركة في كتاب سيبويه _ أربعمائة وسبعة وسبعين آية ((٥))، والذي دفعه إلى الإكثار من الاستشهاد بها

(١) مركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٤٦٢_ ٤٦٣

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٤٨٠

(٣) البحر المحيط : ١/ ١١، التزام سيبويه الديني مظاهره وأثره من ضمن أعمال الندوة الموسومة (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) : ٤٨٩

(٤) ينظر : على سبيل المثال : الكتاب : ١/ ٨٩، ٢/ ٣٩، ٣٢٥، ٣/ ١٤٣، ١٦٢، ١٨٨

(٥) حسب إحصاء الدكتور سليمان خاطر في كتابه : التوجيه النحوي لوجوه القراءات القرآنية في كتاب سيبويه : ١٠١، وذكر الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة في كتابه (فهارس كتاب سيبويه) : ٧٣٧ أنَّها زادت على ثلاثمئة وتسعين شاهدا . هامش (٤) مركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٤٩٣

هو حرصه على بناء القواعد النحوية على أصلها الأول كتاب الله «(١)». وقد رأى أحد الباحثين المعاصرين أنَّ سيبويه أنهج النهج المعرفي إلى منحى في التفسير يعدُّ تفسيرا فنيا، قائما على الدراية، يكون بدوره مقابلا للتفسير الأثري الذي كان سائدا وقائما على الرواية «(٢)». قال إبراهيم رفيدة : « كتاب سيبويه أقدم مؤلَّف يحمل تحليلا فنيا للآيات، وأقدم نص نحوي يتوفر لدينا هو كتاب سيبويه، ومعلوم أنَّ الكتاب كتاب نحو يتناول نص القرآن الكريم باعتباره الدليل الأول من أدلة النحو ... ولكنا لا نعدم فيه تحليلا فنيا لمعاني بعض الآيات القرآنية، ممَّا يعتبر مقدمة ومن المحاولات الأُولى لنشأة التفسير الفني ... ممَّا يجعل لهذا السفر الضخم قيمة أكبر في توجيه العلماء نحو التفسير الفني، مع التفسير الأثري الذي كان هو السائد في عصر سيبويه، كما يجعل له فضلًا أوسع على النحويين اللاحقين؛ لفتحه لهم باب النظر لغويا في كتاب الله عزَّ وجلَّ من حيث النحو والإعراب والمعاني والاحتجاج وهي الميادين التي توسَّع فيها النحويون بعدهُ « «(٣)» . وقد رام الباحث نفسه إظهار ملامح التفسير الواردة في الكتاب وتوضيح كيفية استثمار اللاحقين لهذه الملامح في التأسيس للأنظار التفسيرية لآيات الذكر الحكيم، فتقصد بداءة حصر نصوص الكتاب التي وردت فيها مفردة « المفسرين «، وما يرمز إليه هذا الإيراد من مآلات، ودلالات، ثمَّ تقصد تبيين مسألة «(٤)»، مضمنها : « أنَّ الشواهد القرآنية في الكتاب ليست إلا بؤرًا تفسيرية بامتياز، تتقصد فيها الصناعة النحوية فهم معاني الآي، وإزاحة ما قد يعتري الذهن من إشكال في فسر دلالاته ، وإغناء مفاداته، موردًا من النماذج ما يتناسب مع المقام « «(٥)» . ولا غرابة في ذلك «ذلك أنَّ أبا بشر لم يكن ليسأل وهو الفطن الألمعي لو إشكال دقيق اعترى الذهن في فهم تلك الآية، ... ، خاصة وأنَّ المسؤول عبقري البصرة الخليل بن أحمد الفراهيدي، ... ، فالخليل يفسِّر معنى الآية انطلاقا من النظر النحوي، فقواعد النحو هي التي تفك لنا في كثير من الآحايين مغاليق الآيات القرآنية، وتزيح الإشكال الذي قد يعتري الفهم في إدراك مرادها، وهذا يوضِّح التلاحم القائم بين النحو وبين القرآن من جهة، ويوضِّح من جهة أُخرى أنَّ الشواهد القرآنية في الكتاب إنَّما هي بؤر تفسيرية لمعاني آي الذكر الحكيم « «(٦)». وقد تبدى له حول استعمال

(١) ينظر : مركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٤٩٣_ ٤٩٤

(٢) ينظر : ملامح التفسير في كتاب سيبويه من أعمال الندوة العلمية الموسومة بـ (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) : ٥١٧.

(٣) النحو وكتب التفسير : ١/ ١٧٦. وملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥١٨

(٤) ينظر : ملامح التفسير في كتاب سبويه : ٥١٨

(٥) المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

(٦) المصدر نفسه : ٥٢٧، ٥٣٥_ ٥٣٦

كلمة المفسِّرين فيه الملحوظات الآتية :

١_ تفريق المؤلِّف بين عمل المفسِّرين وعمل النحويين بمعنى أنَّه كان مدركا أنَّ جهوده النحوية في مقاربة الآيات المباركة لا تصبُّ إلا في شعبة من المعرفة التي يستوعبها علم التفسير، « أو هو على الأقل، كان حاضر الانتباه إلى أنَّ المعرفة اللغوية النحوية ركن أساس لتعاطي التفسير، من غير أن تتزاحم هذه المعرفة أو تحلّ محل الممارسة التأويلية التي هي من محض عمل المفسِّر، فبينهما حدود وفروق . .. فلم يرتِّب صاحب الكتاب عمله في الآيات على أنَّه من قبيل تفسير القرآن، بمعناه الشامل المتداول عند أهل الاختصاص في هذا العلم، ذلك أنَّ معالجته للآيات معالجة آلية صناعية تمنح من قواعد النحو ومقولاته، بينما عمل المفسِّر لا يعنى بتلك الحدود والرسوم، خاصة إذا استحضرنا أنَّ التفسير السائد في عصر سيبويه وما قبله إنَّما هو التفسير بالمأثور ومن ثم شرع سيبويه بابًا آخر في التفسير كما سيأتي وهو التفسير الفني أو التفسير اللغوي، ومن ثم فكلَّما عالج ما تفتر عنه قواعد النحو من معاني الآيات، أشار إلى قول المفسرين، وكأنَّه يقابل بين عمل النحويين وعمل اللغويين، وهذا مضمن الملاحظة الثانية «[(١)] .

٢_ « أنَّ القول في التفسير يتوقف على التمهر في علم النحو، إذ ليس ممكنا النفاذ إلى معاني الآي، وإزاحة ما قد يعلق بها من إشكال، إلا بالتوسُّل بقواعد النحو وآلياته، ولا غرابة، فالقرآن في تراكيبه انتهج نهج كلام العرب وسننهم في الكلام، وقد لهج سيبويه بهذا في كثير من نصوص الكتاب، من ذلك قوله : « لكن العباد إنَّما كلِّموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم، وعلى ما يعنون « [(٢)] ...»[(٣)] . ومن الشواهد القرآنية الواردة في الكتاب التي استشهد بها الباحث والتي تشير إلى التلاحم القائم بين القرآن الكريم والنحو وتشير إلى أنَّ تلك الآيات تمثِّل بؤرا تفسيرية لمعاني آيات الله : { حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا }[(٤)]، { وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}[(٥)]، { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ }[(٦)]، فظاهر الآيات عدم ذكر جواب الشرط الأمر الذي جعل سيبويه يستفسر عن هذا، قائلا : « وسألتُ الخليل عن قوله عزَّ ذكره : { حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [(٧)] أين جوابها ؟ وعن قوله جلَّ وعلا : { وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ

(١) المصدر نفسه: ٥٢٤_ ٥٢٥

(٢) الكتاب : ٣/ ٣٣٢

(٣) ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٢٥

(٤) سورة الزمر : ٧٣

(٥) سورة البقرة : ١٦٥

(٦) سورة الأنعام : ٢٨

(٧) سورة الزمر : ٧٣

الْعَذَابَ } ((١))، { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ } ((٢))». وقد أفصح عنه حينما قال : « أين جوابها »((٣)) ؟ فأجاب شيخه الخليل :

« فقال إنَّ العرب قد تترك في مثل هذا الخبر [الجواب] في كلامهم لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام « ((٤)) . وتقدير الكلام في الأُولى « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها كذا وكذا صدقوا وعدهم، وطابت نفوسهم، ونحو ذلك ممَّا يقال في مثل هذا» ((٥)) فالخليل ـرحمه اللّه ـ في جوابه عن استشكال تلميذه نحا منحى تفسيريًّا، ... ، وقد تقفى المفسرون تفسيره، وعدّوه مفتاحًا لفك مغاليق الآيات، ... ، وهناك مواضع أُخرى في الكتاب شرع فيها صاحبه للمفسرين سبلًا، وذلل فيها طرائق لمن سوف يشارك منهم فيما بعد في صناعة التفسير((٦))، وقد أطلق الباحث على تلك الإرهاصات « ملامح التفسير في الكتاب « ((٧)). تجمع له منها مادة أربت على أربعين ملمحًا، فاقتصر على ستة منها الأول : تفسير المعنى وتفسير الإعراب ((٨)): الفرق بينهما أنَّ التفسير الثاني لا بدَّ فيه من لمح الصناعة النحوية، والتفسير الأول قد تلمح فيه الصناعة أو لا . لكنهما قد يتجاذبان الكلام نفسه، فيختلفان بأن يدعو المعنى إلى تقدير، والإعراب يمنع منه، أو العكس ((٩)).

« والواقع أنَّ الملاءمة بين تفسير المعنى وتفسير الإعراب، كانت أبرز ملامح التفسير في الكتاب، وهي قد غطَّت على سائر الملامح، واكتست لدى سيبويه طابع التقليد الذي اطَّرد لديه . ولا غرو، فشواهد الكتاب القرآنية قد سيقت ـ ... ـ وهي محملة بإشكالات وأسئلة شتى؛ كان من متطلباتها فض حالات المنافرة بين المعنى والإعراب، وإرساء التآزر والانسجام بينهما . ونظرا لاستفاضة هذا الملمح في الكتاب، ...، أكتفي في التمثيل له بنموذج واحد، امتدت آثره قوية في كتب اللغة والتفسير» ((١٠)) . وذلك قوله : « وأمَّا قوله عزَّ وجلَّ : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ

(١) سورة البقرة : ١٦٥
(٢) سورة الأنعام : ٢٧
(٣) الكتاب : ٣/ ١٠٣
(٤) المصدر نفسه : الصفحة نفسها
(٥) الخصائص : ٢/ ٤٦٤
(٦) ينظر : ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٣٦ـ ٥٣٩
(٧) المصدر نفسه : ٥٣٩
(٨) ينظر : المصدر نفسه : ٥٤٠
(٩) ينظر : النحو والتفسير أُصول نظرية ونماذج تطبيقية : ١٢٥ وما بعدها . وينظر : ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤٠
(١٠) ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤١

وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ }[١] ، وقوله تعالى : { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا }[٢] فإنَّ هذا لم يبنَ على الفعل، ولكنَّه جاء على مثل قوله تعالى : { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ }[٣] ثم قال بعد : { فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ }[٤] ، فيها كذا وكذا . فإنَّما وضع المثل للحديث الذي بعده، فذكر أخبارًا وأحاديث، فكأنَّه قال : ومن القصص مثل الجنة، أو ممَّا يقصّ عليكم مثل الجنة، فهو محمول على هذا الإضمار ونحوه . والله تعالى أعلم . وكذلك { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي } [٥] كأنَّه لما قال جلَّ ثناؤه : { سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا }[٦] قال : في الفرائض الزانية والزاني، أو الزانية والزاني في الفرائض . ثم قال : فاجلدوا، فجاء بالفعل بعد أن مضى فيهما الرفع « [٧] . الملمح الثاني : اعتماد التفسير في توجيه القراءات والتخريج النحوي [٨]، ومن نماذج هذا في توجيه القراءات قوله : « وبلغنا أنَّ بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا : { وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ }[٩] لم يجعل الحمالة خبرا للمرأة، ولكنَّه كأنَّه قال : أذكر حمَّالة الحطب، شتمًا لها، وإن كان فعلًا لا يستعمل إظهاره « [١٠]. أمَّا الملمح الثالث فهو شرح الألفاظ شرحًا معجميا يوافق المعاني المرادة منها في الآيات [١١]. وممَّا ورد من هذا قوله : « قال قوم « صبغة الله « منصوبة على الأمر . وقال بعضهم : لا بل توكيدا . والصبغة : الدين « [١٢] . والرابع : استعمال المفردات التي عبَّر بها عن الأشياء : ومرجعها إلى ثلاثة ، وهي : التفسير، والتأويل، والمعنى [١٣]. ومن النصوص التي وردت فيها المفردة الثالثة قول سيبويه : « ومثله في الاتساع قوله عزَّ وجلَّ : { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً } [١٤]، فلم يشبِّهوا بما ينعق، وإنَّما شبَّهوا بالمنعوق به . وإنَّما المعنى : مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع

(١) سورة النور : ٢
(٢) سورة المائدة : ٣٨
(٣) سورة محمد : ١٥
(٤) السورة نفسها : الآية نفسها
(٥) سورة النور : ٢
(٦) السورة نفسها : ١
(٧) الكتاب : ١/ ١٤٢_ ١٤٣، وملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤١_ ٥٤٢
(٨) ينظر : ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤٢_ ٥٤٣
(٩) سورة المسد : ٤
(١٠) الكتاب : ٢/ ٧٠، ومركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٥٤٤
(١١) ينظر : ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤٤
(١٢) الكتاب : ١/ ٣٨٢، ومركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٥٤٤
(١٣) ينظر : ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤٤_ ٥٤٥
(١٤) سورة البقرة : ١٧١

. ولكنَّه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى « ((١)). «و الملمح الخامس : توظيف «أي» التفسيرية : ... وتكتسي (أي) طابع الأداة التي يعبر بها الشارح من النص إلى المعنى، أو جزء المعنى « ((٢)) . وقد جاء هذا الملمح في الكتاب في قول سيبويه : « ومن ذلك قوله عزَّ وجلَّ : { بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا }((٣)) أي بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا، كأنَّهم قيل لهم : اتَّبعوا، حين قيل لهم : « كونوا هودًا أو نصارى « ((٤)) . و « الملمح السادس : المنزع العقلي في التفسير : ... وتصوَّرت في ضرب من الجدل الخفيف، وأحيانًا بدت في شكل اعتراض، وربَّما قيَّدت الإشكال بالسؤال، لتمضي فيه بعد هذا، أحكام العقل ومقتضيات الصنعة . كلّ ذلك أجراه سيبويه برفق واعتدال، وأنهاه إلى حدود قريبة، لا تكلُّف فيها ولا تعقيد « ((٥)). ومن نصوص الكتاب التي يلمح فيها هذا المنزع العقلي النص الآتي : « قال الله عزَّ وجلَّ : { لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ }((٦)) أي ونحن نقر في الأرحام؛ لأنَّه ذكر الحديث للبيان ولم يذكره للإقرار . وقال عزَّ وجلَّ : { أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا }((٧)) فانتصب؛ لأنَّه أمر بالإشهاد لأن تذكر إحداهما الأُخرى، ومن أجل أن تذكر . فإن قال إنسان : كيف جاز أن تكون أن تضل ولم يعد هذا للضلال وللالتباس ؟ فإنَّما ذكر أن تضل لأنَّه سبب الإذكار، كما يقول الرجل : أعددته أن يميل الحائط فأدعمه، وهو لا يطلب بإعداد ذلك ميلان الحائط، ولكنَّه أخبر بعلة الدعم وبسببه « ((٨)). وقد تطايرت هذه الملامح في كتب التفسير، وكان لها من الاهتبال عند أصحابها ما بوَّأ سيبويه مقام التقدير والصدارة ((٩)). ومن الملاحظ أنَّ تأثير هذه الملامح في كتب التفسير له أشكال متعددة؛ إذ لم تزل تلك الكتب تستثمر ما ذكره سيبويه حول مجموعة من النصوص القرآنية ، تقتفي أثره، وتثير ما أثاره من الإشكالات حولها مجاهرة باسمه في أحيان كثيرة، وساكتة عن ذكره في بعض الأحايين((١٠))، وسأكتفي بعرض مثال ممَّا اختاره الباحث يتمثَّل بتأثير ما ورد في قول سيبويه : « وزعم أنَّ أبا ربيعة كان يقول : إذا لقيت فلانا فقل له سلاما . فزعم أنَّه سأله

(١) الكتاب : ١/ ٢١٢، ومركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٥٤٥
(٢) ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤٧
(٣) سورة البقرة : ١٣٥
(٤) الكتاب : ١/ ٢٥٧، وملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤٧
(٥) ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤٨
(٦) سورة الحج : ٥
(٧) سورة البقرة : ٢٨٢
(٨) الكتاب : ٣/ ٥٣، وملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٤٩
(٩) ينظر : ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٥٠
(١٠) ينظر : المصدر نفسه : الصفحة نفسها

ففسره له بمعنى : براءة منك، وزعم أنَّ هذه الآية : { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا }((١)) بمنزلة ذلك؛ لأنَّ الآية فيما زعم مكية، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، ولكنَّه على قولك : براءة منك وتسلما، لا خير بيننا وبينكم ولا شر ((٢)) . في رأي المفسرين فقد انتبه المفسرون إلى موضعه من الكتاب، فأودعوا تفاسيرهم ما أورد سيبويه فيه من معنى وشرح . والنصوص الآتية تظهر اعتدادهم برأيه تحريهم عبارته . على سبيل المثال ذكر الزجاج في كتابه : «{ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا }((٣)) أي : نتسلم منكم سلامًا لا نجاهلكم، كأنَّهم قالوا : تسلمًا منكم « ((٤)). وقال الزمخشري في الكشاف : « (سلاما) : تسلما منكم لا نجاهلكم، ومتاركة لا خير بيننا ولا شرّ «((٥)) . فالعبارة الأُولى للزجاج والأخيرة لسيبويه . وبذلك يتضح للقارئ كيف فرض أبو بشر سلطانه على المفسرين وإن اختلفوا في بعض الأحيان معه، فالاختلاف نفسه نوع من التأثير، وبذلك يكون كما سلف قد فتح باب التفسير الفني للنصوص القرآنية ، وشرعه سبيلا لينهج نهجه ثلة من المفسرين ((٦)). علمًا أنَّ سيبويه لا ينتصر للمعاني الثقافية على المعاني الدينية كما في شعور المفسرين الجمعي فمن الملاحظ أنَّ تأويلاتهم لم تأت استجابة لدوافع بشرية غايتها الارتقاء بالسلوك البشري فحسب بل جاءت استجابة لضرورات أيديولوجية وثقافية أيضًا أملتها الرغبة في استمرار السلوك الثقافي والحفاظ عليه ((٧)). « وهناك نكتة لطيفة لحظها الباحث أنَّ سيبويه في تحليله للنص القرآني الكريم يعتمد السياق اللغوي ولا يعوِّل على أسباب النزول التي تعدُّ سياقا خارجيا ربَّما لعدم قناعته بروايات أسباب النزول، وهذه سمة بارزة في تحليله لكثير من النصوص القرآنية الكريمة وقد حذا حذوه السيد الطباطبائي في تفسير إذ أفرد في نهاية كلّ فصل بحث روائي ولم يدخله في تفسيره، وهذا دليل على تأثر العلامة الطباطبائي بمنهجية سيبويه « ((٨)).

(١) سورة الفرقان : ٦٣

(٢) الكتاب : ١/ ٣٢٥، وتغنثك أي : تتغنثك بحذف إحدى التاءين . بمعنى تعلق بك . والذموم : العيوب، جمع ذم . هامش (١) مركزية سيبويه في الثقافة العربية : ٥٥١

(٣) سورة الفرقان : ٦٣

(٤) معاني القرآن وإعرابه : ٤/ ٧٤.

(٥) الكشاف : ٣/ ٩٩

(٦) ينظر : ملامح التفسير في كتاب سيبويه : ٥٥٤

(٧) ينظر : العلامات والأشياء كيف نعيد اكتشاف العالم في الخطاب : ٨٤_ ٨٥، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه: ٢٥٧_٢٥٨

(٨) تحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٥٨

٣_ نحو الكتاب والقراءات القرآنية : من الثابت في الدرس اللغوي العربي أنَّ اللهجات العربية ارتبطت في الكتاب بالقراءات القرآنية، فقد حفظت القراءات لنا اللهجات العربية بل عُدَّت مرآة صادقة لما كانت عليه تلك اللهجات ((١)). وقد استعان سيبويه بالقراءات القرآنية النادرة والمخالفة في بناء أُصول النحو مثلما استعان بالقراءات القرآنية المشهورة وطوَّعها لمقاييسه فجاءت في مواضع مختلفة منثورة في كتابه، فمرة يثبِّت بها قاعدة، ومرة يقيس عليها وثالثة يؤيِّد بها، ورابعة يقوي شاهدًا شعريًّا بها وخامسة يحملها على بعض كلام العرب وسادسة يضعها أصلًا يخرج عليه قراءة ما، وسابعة يجعلها مثالا في عداد الأمثلة، أمَّا إذا اصطدمت القراءة بمقاييس توجهه فيستعين بمقاييس شيخه الخليل كأنَّ شيخه يفهم ما يريد من تلك الأسئلة وعلى معرفة بتوجهه الاعتزالي_ هذا من وجهة نظر معاصرة_ ؛ لذا كان جوابه له مبنيا على التوجه اللغوي مع مراعاة ترك فهم النص له بما تسمح اللغة به، ومن الثابت أنَّ أكثر القراءات الواردة في الكتاب كانت مقبولة؛ لأنَّ ما كان قارًّا في ذهن سيبويه أنَّ الاختلاف في القراءة راجع إلى التنوع اللهجي أو المعنى المتحصل منها ((٢)). وقد صرَّح الدكتور شوقي ضيف بأنَّ القارئ للكتاب لا يجد تخطئة لقراءة من القراءات بل إنَّ سيبويه قد أعلن قبولها جميعا، حيث قال : القراءات لا تخالف؛ لأنَّها سنة ((٣)). وتقول الدكتورة خديجة الحديثي : « أمَّا _ سيبويه _ شيخ النحاة البصريين الذين كانوا يخضعون القراءات لأقيستهم وإجماعهم وأُصولهم التي وضعوها وإن كانت من القراءات السبع التي اعتمدت ونقلت نقلا متواترا عن الرسول (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وصحابته (رضي الله عنهم) عند أكثر الباحثين _ فلم يعب قارئا ولم يخطئ قراءة بل كان يذكرها؛ ليبين وجها من العربية فيها وليقوي بها ما ورد عن العرب وإن كانت القراءة من القراءات المفردة، لا يردها ولا يصفها بالشذوذ أو الخطأ ولا يصف القارئ بالخطأ أو يطعن فيه إنَّما يحاول تخريجها على إحدى لغات العرب، وهو الذي يعد اللغات الواردة عن العرب فصيحة صحيحة، وليس المتكلم بها مخطئا، فكيف يخطِّئ القراء وهم أئمة المسلمين وأعلامهم، وما قرؤوا به لا يخالف »((٤)) . وقد عقَّب أحد المعاصرين على قولها، قائلا : « ومع إجلالنا لرأي أُستاذتنا خديجة الحديثي وآرائها السديدة يمكن أن نقف عند القراءات السبع التي جعلت سيبويه يلتزم بها وهذه التسمية

(١) ينظر : اللهجات العربية في القراءات القرآنية : ٢٠٤، ونحو كتاب سيبويه : ١٠٩

(٢) ينظر : القراءات الشاذة وتوجهها النحوي : ١١٣، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه (دراسة في الآليات والمرجعيات) : ٢٤١

(٣) ينظر : المدارس النحوية : ١٥٧ ، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٤٢

(٤) الشاهد وأُصول النحو في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٤م : ٥١، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٤٢

متأخرة عن زمن سيبويه وكما هو معروف أنَّ ابن مجاهد (ت٢٤٣هـ) مسبِّع السبعة هو صاحب فكرة اختيار القراء وسيبويه في كتابه ينسب القراءة إلى البلد يقول : هذه قراءة الحجاز أو قراءة أهل الكوفة « ((١)). وذهب الدكتور محمود نحلة إلى تبرئته بقوله : « وأُثر عن سيبويه استشهاده بما عرف من بعد بالقراءات الشاذة إذا لم تخالف قياسا معروفا فإذا خالفت القراءة القياس أعرض عن ذكرها وتجنَّب الإشارة إليها أو ذكرها وذكر رأي بعض أساتذته فيها من غير تعقيب منه، ... « ((٢)). وهناك تفسير معاصر لهذا الإصرار على جواز قبول القراءات وتوجهها لغويا مفاده اعتقاد سيبويه بأنَّ اللغة تمثِّل ظاهرة اجتماعية وإنَّها اصطلاح واتفاق وليست توقيف من الله وإنَّها متماشية مع كلام العرب ((٣)) .

٤ _ نحو الكتاب وعلم الفقه وأُصوله : إذ رصد الباحثون في كتابه ما يدلُّ على إلمامه بالفقه وأُصوله وتوظيفهما في التحليل النحوي، فمن هذا مثالٌ يدلُّ على معرفته بأبواب البيوع، وهو ما يعبَّر عنه ببيع (اليد باليد) ((٤)) ، قال : « وأمَّا (بايعتُهُ يدًا بيدٍ) فليس فيه إلا النصب، ... ، ولكنَّه أراد أن يقولَ : بايعتُهُ بالتعجيل، ولا يبالي أقريبًا كان أم بعيدًا «((٥)) ، وهذا في عرف أصحاب الفقه : التقابض بين البيعين في محلِّ العقد، فقولهم : (بايعتُهُ يدًا بيدٍ) المراد به البيع : بالتعجيل والنقد ((٦)). ومن المسائل الأُصولية في كتابه دلالة الملفوظ النكرة على العموم إذا جاء في سياق الكلام المنفي، وبقوله قال الجمهور ((٧)). ومنها : وقوع المشترك في كلام العرب ((٨))، ودلالة (كلّ) على الإحاطة بكلِّ شيء ممَّا أُضيفت إليه، معرفة ونكرة . فضلًا عن دلالتها على العموم((٩)) ، لذا تجد عند أصحاب الأُصول عناية لكتاب سيبويه، ولقوله احتفاء، صحَّحوا باختياره اختيارهم، واعتمدوا قوله في كثير من المباحث المشتركة بين علمي

(١) تحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٤٣

(٢) أُصول النحو العربي، د. محمود نحلة، دار العلوم العربية، بيروت ، ١٩٨٧ : ٣٤_ ٣٥، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٤٣

(٣) ينظر : تحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٥٢

(٤) ينظر : نحو كتاب سيبويه : ١٠٥

(٥) الكتاب : ١/ ٣٩١

(٦) ينظر : شرح السنة للبغوي : ٨/ ٦٠، المغرب للمطرزي : ٢/ ٣٩٦، وينظر : نحو كتاب سيبويه : ١٠٦

(٧) ينظر : الكتاب : ١/ ٣١٦، والبرهان في أُصول الفقه : ١/ ٣٣٨_ ٣٣٩، والتمهيد في تخريج الفروع على الأُصول : ٣١٩

(٨) ينظر : الكتاب : ١/ ٣٢٠ وما بعدها ، والمحصول في علم الأُصول : ١/ ٢٧٢

(٩) ينظر : الكتاب : ١/ ٢٠٣، والبحر المحيط في أُصول الفقه : ٣/ ٦٤

العربية والأُصول [(١)]. وقد سلَّطت القراءة المعاصرة الضوء على جوانب في غاية الأهمية في إطار ذلك من أهمها : إنَّ المعتزلة لم يروا في الكلام الإلهي اختلافًا عن كلام البشر، ومن ثم فإنَّ الأحكام التي أطلقوها على الكلام الإلهي إنَّما تمثل الأحكام ذاتها التي أطلقوها على كلام البشر [(٢)]، وإنَّ وسم الكلام بالفعل يرجع إليهم على جهة الخصوص [(٣)] ، ومن الأسئلة المثارة لماذا استعمل سيبويه الكلام، ولم يستعمل مصطلح الجملة ؟ على الرغم من أنَّ مفهوم هذا المصطلح واضح عنده، فقد أشار (كارتر) إلى رؤية أبي بشر للكلام على أنَّه نمط من أنماط السلوك الإنساني، وأنَّه أي : الكلام عرف اجتماعي، والدليل اعتماده على معايير سلوكية في تحويل المصطلحات الأخلاقية إلى علم النحو، وإنَّه قدَّم تحليله بجعل الكلام نشاط اجتماعي [(٤)]، ومن الملاحظ أنَّ (كارتر) وظَّف مصطلح الفقه توظيفًا عامًّا، من دون الإشارة إلى رؤية هذه الفرقة التي عرف أصحابها بالتوجه العقلي في طرح المعطيات الفقهية . « وربَّما استعمل سيبويه المصطلحات الدائرة في زمانه، ويقينا كان المصطلح الفقهي طاغيا في عصره، وإن كان الباحث يميل إلى أنَّ سيبويه يستعمل المصطلح بتدبر فيه بعد، وميل اعتزالي مبطَّن، واستعماله لمصطلح الكلام بدلا من مصطلح الجملة فيه إيفاء ودقة عالية بغرض الكتاب الذي بني على استعمال الكلم الخطاب وتقويمها على أساس من تحليل الخطاب؛ وذلك أنَّ سيبويه معني بالدرجة الأساس بعملية الكلام ووصفه وتقويمه، ويبدو أنَّ مفهوم الجملة، والفرق بينها وبين الكلام قارٌّ في ذهنه، والجملة بناء صناعي يشترط فيه الإسناد، أفادت أم لم تفد، أمَّا الكلام ففيه الإسناد والإفادة، فكل كلام جملة وليس كل جملة كلام » [(٥)]. ومن الأفكار الواضحة الدالة على تأثره بالفقه من منظور المعتزلة ما أكَّده المعتزلة من أنَّ الجسم لا يكون قديما ومحدثا في الوقت نفسه ولا يكون الشيء موجودًا ومعدمًا [(٦)]، « ولا يصح ورود صفتين متناقضتين على جسم لغوي واحد؛ إذ لا يكون ظاهرا ومضمرا، وهذا يلحظ هذا البعد العقدي حضوره في كتاب سيبويه وفي

(١) ينظر : أثر سيبويه في الدرس الأُصولي، ضمن كتاب مؤتمر قسم النحو الدولي السادس بكلية دار العلوم : ٢/ ٦٧٦، وسيبويه مادته ومنهجه : ٢٠٢ _ ٢٠٤، ونحو كتاب سيبويه : ١٠٦

(٢) ينظر : التفكير الدلالي عند المعتزلة : ٦٣، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه (دراسة في الآليات والمرجعيات) : ١٨٩

(٣) ينظر : النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، ١٩٨٦م : ١٦، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه (دراسة في الآليات والمرجعيات) : ١٨٩

(٤) ينظر : المستشرقون والتراث النحوي العربي : ١٨٣، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ١٨٩

(٥) تحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ١٨٩ .

(٦) ينظر : المصدر نفسه : ١٩٠

الصفحات الأُولى منه، ... ، وإنَّ أبواب المقدمة تبدو كأنَّها وحدة متناسقة متكاملة من جهة التفكير النحوي، واتصال المسائل المعروضة بعضها ببعض وقد عدَّها الدكتور المنصف بن عاشور ضربا من المقدمة النحوية للآراء التي سيدرسها سيبويه مفصلة في سائر أبواب الكتاب، وهي عبارة عن تمهيد شديد الاختصار لمضمون الكتاب، وعرض لأحكام النحو العربي وقواعده ومفاهيمه وطرائق التعليق النحوي، ... « «(١)». ومن رجع إلى المتكلم والكلام معرفة موقع الكلام وجد القاضي عبد الجبار قد قال : « إنَّ المتكلم هو من فعل الكلام وليس من قام به الكلام « «(٢)» . أي : نسب الكلام إلى الإنسان لا لعضو النطق اللسان، وهذا ما قصده سيبويه في قوله « وأمَّا الفعل : فأمثلة أُخذت من لفظ أحداث الأسماء « «(٣)»، وقد أوضحه السيرافي بشكل جلي وذلك في قوله : « يعني أنَّ هذه الأبنية المختلفة أُخذت من المصادر التي تحدثها الأسماء، وإنَّما أراد بالأسماء أصحاب الأسماء وهم الفاعلون « «(٤)». ، وقد أجاد الرماني في تحليل كلام سيبويه بعقله الاعتزالي مع مراعاة مرجعيته العقدية ، لوحظ هذا في قوله « وحد سيبويه الفعل، من غير الاسم ؛ لأنَّ الفعل أحقُّ بالحد من أجل أنَّه منقول عن أصله في اللغة إلى صناعة النحو للحاجة إلى ذلك؛ إذ أصله في اللغة وجود الشيء بعد أن لم يكن موجودًا، ثم نقل إلى كلمة تدلّ على حدث مختص بزمن « «(٥)». وتصور الرُّماني هذا مقارب لتصور المعتزلة عموما ولتصور سيبويه الذي رأى أنَّ العموم للمعاني المتصلة بالحدوث مبني على القول بمسألة الخلق وما يترتب عليها من حلول التغير بالجسم اللغوي وجوازات تبدله، والتمسك بهذه المسألة عند سيبويه من جوهر العقيدة الدينية التي لا انزياح عنها «(٦)». ومن النصوص التي لمح فيها التأثير العقدي في تأسيس الأفكار النحوية في الكتاب الباب الثاني من مقدمته والذي بدأه بقوله : « هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية : وهي تجري على ثمانية مجارٍ : على النَّصب والرفع والجر والجزم، والفتح والضم، والكسر والوقف .... «(٧)» . وبعد ذكر الحركات الإعرابية وما يخصّها ألحق النص

(١) ملاحظات حول رسالة سيبويه في الكتاب ، المنصف عاشور، مشروع قراءة في النظريات النحوية العربية، بحث منشور في الحوليات التونسية، العدد ٣٠، ١٩٨٩م : ١٦٩_ ١٧٠، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه (دراسة في الآليات والمرجعيات) : ١٩١

(٢) التفكير الدلالي عند المعتزلة : ٧١ ، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٧١

(٣) الكتاب : ١/ ٥٤

(٤) شرح كتاب سيبويه : السيرافي : ١/ ٢٠

(٥) شرح كتاب سيبويه : الرماني : ١/ ٣٧، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ١٩١_ ١٩٢

(٦) ينظر : الأُسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه : ١٠٨

(٧) الكتاب : ١/ ٥٥ ، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ١٩٢

المذكور بنصٍّ آخر وظَّف العامل الحجاجي (إنَّما) في بدايته، ونعني ما ورد في قوله : « وإنَّما ذكرتُ لك ثمانية مجارٍ لأُفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل ـ وليس شيء منها إلا وهو يزول ـ وبين ما يبنى عليه الحرف بناءً لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل، التي لكل عامل منها ضرب من اللفظ في الحرف، وذلك الحرف حرف الإعراب « ((١)). وخلاصة الأمر في هذا أنَّ الثابت في فكر أبي بشر أنَّ ما يجري في عالم الشهود على الأجسام يجري عليها نفسها في عالم الكلام، وذلك ما يفسر احتياج الإدراك النحوي إلى الشيئية بما أنَّها صفة للأجسام اللغوية حتى يتحقق للإدراك النحوي كما بهذه الأشياء ((٢))، متأثرا بمقولات المعتزلة أنَّه : (لا يصح وجود الشيء إلا و له حكم) وهذا الحكم يأتي نتيجة الإدراك والتصور ولا يصح ذلك الحكم إلا لمعنى ((٣)). ومن المقولات التي تحمل تأثيرا عقديا في تحليل سيبويه : « واعلم أنَّه يقبح أن تقول هذا من منطلق إذا جعلت المنطلق حشوا أو وصفا، فإن أطلت الكلام فقلت : من خير منك، حسن في الوصف والحشو، زعم الخليل أنَّه سمع من العرب رجلا يقول : ما أنا بالذي قائل لك سوءا، وما أنا بالذي قائل لك قبيحا، فالوصف بمنزلة الحشو المحشو؛ لأنَّه يحسن بما بعده كما أنَّ الحشو المحشوّ إنَّما يتمّ بما بعده « ((٤)). فمن الملاحظ أنَّه عرض (زعم الخليل) الذي فيه رائحة الاعتزال واضحة، وقد استدل على ذلك بعد العودة إلى مفهوم الحشو في نظر المعتزلة ليكون الاستدلال في موضعه، وفيه بيان لعزوف أبي بشر عن الاستشهاد بنصوص الحديث . من المعروف أنَّ أصحاب هذا الفكر مالوا إلى رفض الأحاديث المتعارضة مع أُصولهم الخمسة، ولم يتقبَّلوا أيَّ حديث يخالف المبادئ والأُصول التي تمسَّكوا بها ((٥)). وقد ذكر الدكتور النشار أنَّ هناك جماعة من الرواة عرضوا على الحسن البصري روايات أنكرها وقال لأتباعه ردُّوهم إلى حشا الحلقة، فأُطلق عليهم الحشوية، ولعلَّ هذه التسمية هي التسمية الأُولى للذين حشوا الحديث المروي بالاسرائيليات . على الرغم من وجود نصوص تذكر أنَّ عمرو بن عبيد ـ وهو أول من أطلق ذلك الاسم على عبد الله بن عمر (ت٧٣هـ) الذي كان يقبل الأحاديث والسنن كيفما كانت، و لفظة الحشو هو في الواقع مرادفة

(١) الكتاب : ١/ ٥٥

(٢) ينظر : سيبويه معتزليا حفريات في ميتافيزقيا النحو العربي : ١٠٥، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ١٩٣

(٣) ينظر : المحيط بالتكليف، القاضي عبيد الجبار، تحقيق : عمر السيد عزمي، مكتبة الأزهرية للتراث سلسلة تراثنا، ط١، ١٩٨٢م : ٦٤، وينظر : الأُسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه : ١٠٦، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ١٩٣

(٤) الكتاب : ٢/ ١٨٧، تحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٢١

(٥) ينظر : ضحى الإسلام : ٣/ ٩٦، وتحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٢١

للفظة (الوضع) التي تعني الكذب في الحديث ونسبة ما لم يقله رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) إليه ((١)) . وكان لإبراهيم النظام مع رواة الحديث خلافات يرجع سببها إلى أنَّه لم يقبل الأحاديث التي تتعارض مع أُصول المعتزلة أصحابه . وجاء من بعده تلميذه الجاحظ (ت٢٥٥هـ) سائرا على نهجه في الاستهزاء بأصحاب الحديث والسخرية منهم، فهو أطلق عليهم مصطلح (الحشوية) في إحدى رسائله ((٢))، يقول أحد الباحثين : « بعد هذا التقليب لمعنى الحشو عند المعتزلة، ثبت للبحث أنَّ مصطلح (الحشو) متجذر عند المعتزلة وإنَّ استعمال سيبويه جاء بناء على الأثر العقدي « ((٣)) .

٥_ نحوُ الكتاب وعلوم البلاغة : من الثابت في ميدان العربية أنَّ علماء البلاغة اعتدُّوا بمادة الكتاب، وأنَّ عبارات سيبويه كانت تعاد في تآليفهم ((٤))، وأمثلة الكتاب دارت في كتبهم ((٥)).

وبعد هذا كلُّه أقول : لله درّ أبي بشر فقد استعان بكتابه أغلب من ألَّف في علوم الشريعة، فضلًا عن علوم اللغة، فكتب التفسير مشحونة بالنقل عنه، وكذلك شروح الحديث، وشروح الفقه وأُصوله، ولا يمكن لأحد أن يحصي نقولات هؤلاء عنه، وصدق الزمخشري عندما عبَّر عن هذا الدور في فهم العلوم الدينية بقوله : « لا تجد علمًا من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع، ويرون الكلام في معظم أبواب أُصول الفقه ومسائلها مبنيا على علم الإعراب « ((٦)) .

(١) ينظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : ١/ ٣٧٤

(٢) ينظر : رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن محبوب الليثي الكناني، وتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي _ القاهرة، ١٩٦٤م : ٢/ ١٥٤، وينظر : تحليل الخطاب في كتاب سيبويه : ٢٢٢

(٣) تحليل الخطاب في كتاب سيبويه (دراسة في الآليات والمرجعيات) : ٢٢٢

(٤) ينظر : الصناعتين : ٧٠، " وفيه حديث عن المستقيم والمحال من الكلام دون عزو لسيبويه " هامش (١١) نحو كتاب سيبويه : ١٠٧، وينظر : أثر سيبويه في البلاغة العربية : ٢١٩_ ٢٢٧

(٥) ينظر : دلائل الإعجاز : ١٠٧، ١٣١، ١٤٥، ٣٥١، ٦٠٤، وأسرار البلاغة : ٤١٦، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٤٧، ٢٩٩، ٣١٦، ومفتاح العلوم : ٢٠٩، ٢٣٦، ٢٤٩، ٣٢٧، والطراز : ١/ ٧٣، ٧٥، ٧٨، ٢١٣

(٦) المفصل : ١/ ١٨، وشرح المفصل لابن يعيش : ١/ ٨، التزام سيبويه الديني من أعمال الندوة الموسومة (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) : ٤٨٩

الخاتمة

بيَّنت الدراسات المعاصرة الآتي :

_ ليس العلم باللغة بمرادف لتفسير القرآن الكريم . وإنَّ ملاحظة مناقشة المسائل الأكثر إشكالًا في لغة القرآن الكريم تجعل القارئ يدرك أنَّ طريقة تناول سيبويه لتلك المسائل تعدُّ أساسًا منهجيًّا ضروريًا في ثقافة النحوي حين يتولَّى مشاركة تفسير القرآن الكريم .

_ إنَّ سيبويه كان مدركًا للعلاقة بين التفسير والنحو وفي الوقت نفسه كان مدركا للفرق بين منهج المفسِّرين المرتكز على الرواية ومنهج النحويين المرتكز على الدراية .

_ إنَّ الآيات المباركة في الكتاب كانت بؤرًا تفسيرية تولَّت قواعد النحو فيها مهمة إظهار المعنى وتجليته . مع مراعاة أنَّه لم يقدِّم مقتضيات اللغة على مقتضيات التفسير .

_ إنَّه اهتمَّ بجعل تقدير الإعراب على أُصل المعنى الذي تتطلبه الآية، وترفَّق في التقريب بين طريق المعنى وطريق الإعراب، وقد حرص على المؤاخاة بينهما في تحليل الشواهد القرآنية .

_ أسهم تأثره بعلم الحديث في تحديد ملامح منهجه النحوي، ومن الواضح أنَّ تأثره يمكن حصره بالتأثر بآداب المحدثين وبطرائق حمل الحديث وبتقسيم الحديث وباقتباس المصطلحات .

_ رصد الباحث المعاصر ملامح التفسير في الكتاب وبيَّن أنَّ هذه الملامح شرع فيها سيبويه سبلًا لمن سيشارك فيما بعد في صناعة التفسير، أهمّ تلك الملامح :

١_ تفسير المعنى وتفسير الإعراب، ٢_ اعتماد التفسير في توجيه القراءات وفي التخريج النحوي، ٣_ إيراد الشرح المعجمي للألفاظ ، ٤_ استعمال المفردات المعبَّر بها عن الأشياء . ٥_ توظيف الأداة (أي) التفسيرية . ٦_ المنزع العقلي في تفسير الآيات المباركة .

_ إنَّ التأثُّر والتأثير ناتج عن التداخل المعرفي في ثقافتنا الإسلامية، وهذا التداخل يشير إلى الغنى الفكري والثقافي لعلماء الأُمة الإسلامية، هذا من جهة ومن جهة أُخرى يشير إلى الأصالة والرقي في النتاج العربي الذي حرص الأجيال على الاعتزاز به وإظهار مميزاته .

المصادر والمراجع

_ أثر سيبويه في البلاغة العربية من خلال مؤلفه الكتاب، د. محمد الأمين أبو صالح، مطابع دار الشروق، الدوحة _ قطر، د. ط، ١٩٩٩م .

_ أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع _ القاهرة، د.ط، ١٩٩٨م.

_ الإحكام في أُصول الأحكام، الحسن بن بشر يحيى الآمدي، طبع دار المعارف، ١٩١٤م

_ الاستذكار، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تح : سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية _ بيروت، ط١، ١٤٢١هـ .

_ أسرار البلاغة، الشيخ عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني _ القاهرة، ودار المدني _ جدة، ط١، ١٤١٢هـ _ ١٩٩١م .

_ الأُسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث : إربد _ الأردن، جدارا للكتاب العالمي : عمان _ الأردن، ط١، ٢٠٠٧م .

_ أُصول النحو العربي، د. محمود نحلة، دار العلوم العربية، بيروت ، ١٩٨٧ .

_ إنباه الرواة على أنباه النحاة، علي بن يوسف القفطي، تح : محمد أبو الفضل، طبع دار الكتب، ١٩٥١م .

_ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دراسة وتوزيع : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه : د. زكريا عبد المجيد المنوفي ود . أحمد الجمل، دار الكتب العلمية _ بيروت، ط١، ١٤١٣هـ _ ١٩٩٣م .

_ البحر المحيط في أُصول الفقه، بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي الشافعي، قام بتحريره: الشيخ عبد القادر العاني، وراجعه : د. عمر الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية _ الكويت، ط٢، ١٤١٣هـ _ ١٩٩٢م .

_ تاريخ بغداد، الحافظ أبو بكر البغدادي، المكتبة السلفية _ المدينة المنورة، دار الكتب العلمية _ بيروت، د. ت .

_التراكيب غير الصحيحة نحويا في الكتاب لسيبويه دراسة لغوية، د. محمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ط٢، ١٩٨٨م .

_ التفكير الدلالي عند المعتزلة، د. علي حاتم الحسن، دار الشؤون الثقافية العامة،

ط١، ٢٠٠٢م .
_ التقييد والإيضاح، شرح مقدمة ابن الصلاح، تقي الدين أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن عثمان الشهرزوري، مطبعة العاصمة، ١٩٧٧م .
_ التمهيد في تخريج الفروع على الأُصول، الإمام عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعي، تح : د. محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة _ بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ .
_ التوجيه النحوي لوجوه القراءات القرآنية المشكلة في كتاب سيبويه، د. سليمان خاطر، مكتبة الرشد _ الرياض، ط١، ١٤٣٠هـ .
_ الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن المرادي، تح : د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط١، د. ت .
_ حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، محمد بن علي الصبان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٦هـ _ ١٩٤٧م .
_ حجة القراءات، للإمام أبو زرعة عبد الرحمن بن زنجلة، تح : سعيد الأفغاني، مطابع الشروق، بيروت، ط١، ١٩٧٤م .
_ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م
_ الخلاصة في أُصول الحديث، الحسن بن عبد الله الطيبي، تح : د. صبحي السامرائي، مطبعة الإرشاد ببغداد، ١٩٧١م .
_ دراسات اللغة، د. عبد الصبور شاهين، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٧٦م .
_ دلائل الإعجاز، الشيخ عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني _ القاهرة، دار المدني _ جدة، ط٣، ١٤١٣هـ _ ١٩٩٢م .
_ رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن محبوب الليثي الكناني، وتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي _ القاهرة، ١٩٦٤م .
_ سيبويه والقراءات دراسة تحليلية معيارية ، د. أحمد مكي الأنصاري، دار المعارف _ القاهرة، ١٩٧٢م .
_ الشاهد وأُصول النحو في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٤م .
_ شرح السنة، أبو محمد الحسيني بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تح : شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي _ دمشق _ بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ

_ ١٩٨٣م.
_ شرح كتاب سيبويه، للسيرافي، تح : أحمد حسن مهدلي و علي سيد علي، دار الكتب العلمية، لبنان _ بيروت، ط١، ٢٠٠٨م .
_ شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب _ بيروت، د. ط، د. ت .
_ الصناعتين : الكتابة والشعر، الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي _ القاهرة، ط١، ١٣٧١هـ _ ١٩٥٢م .
_ ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي _بيروت ، ط١٠ ، د. ت .
_ طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف _ مصر، ط٢، د. ت .
_الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية _ بيروت، نسخة مصورة عن نسخة مطبعة المقتطف، ١٣٣٣هـ ١٩١٢م .
_ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) تح : لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة _ بيروت، ط٥، ١٩٨٢م.
_ الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتجب حسين بن أبي العزّ الهمذاني، تح : محمد حسن النمر، دار الثقافة، ط١، ج١، ١٩٩١م .
_ فهارس كتاب سيبويه، محمد عبد الخالق عضيمة، ط١، ١٣٩٥ هـ .
_ القراءات الشاذة وتوجهها النحوي، د. محمود أحمد الصغير، دار الفكر المعاصر _ بيروت ، ط١، ١٩٩٩م .
_القراءات واللهجات، عبد الوهاب حمودة، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٤٨م .
_ الكتاب، سيبويه، تح : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي _ القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ _ ١٩٨٨م .
_ الكفاية، أبو بكر أحمد بن علي البغدادي، تقديم : محمد حافظ التيجاني، ومراجعة : عبد الحليم عبد العليم وآخرون، مطبعة السعادة، ١٩٧٢م .
_اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري، تحقيق : غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق، ط١ ، ١٩٩٥.
_ لغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان _ الأردن، د. ت .

_ اللهجات العربية في القراءات القرآنية، د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية _ الإسكندرية، ١٩٩٦م .

_ مجالس العلماء، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تح : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي _ مصر، ط٣، ١٤٢٠هـ .

_ المحصول في علم أُصول الفقه، الإمام فخر الدين الرازي، دراسة وتحقيق : د. طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة _ بيروت، ط٣، ١٤١٨هـ_ ١٩٩٧م .

_ المحيط بالتكليف، القاضي عبيد الجبار، تحقيق : عمر السيد عزمي، مكتبة الأزهرية للتراث سلسلة تراثنا، ط١، ١٩٨٢م .

_ المدارس النحوية، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ١٩٦٨م .

_ المستشرقون والتراث النحوي العربي، د. عبد المنعم السيد أحمد، كنوز المعرفة ، ط١، ٢٠١٦م .

_ معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، تح : د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب _ بيروت، ط١، د.ت .

_ معجم الأُدباء، ياقوت الحموي، تح : د. إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م .

_ المغرب في ترتيب المعرَّب، د. ناصر الدين المطرزي، تح : محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أُسامة بن زيد _ حلب، ط١، ١٣٩٩هـ _ ١٩٧٩م .

_ مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، أبو العلاء الكرماني، دراسة وتحقيق : د. عبد الكريم مصطفى مدلج، تقديم : محسن عبد الحميد، دار ابن حزم _ مصر، ط١، ٢٠٠٢م .

_مفاتيح التفسير، معجم شامل لما يهم المفسر معرفته من أُصول التفسير وقواعده، ومصطلحاته، ومهماته، أ. د. / محمد سعيد الخطيب، دار التدمرية، دار ابن حزم، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣١هـ _ ٢٠١٠م .

_ مفتاح العلوم، الإمام أبو يعقوب السكاكي، ضبطه وشرحه : الأستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية _ بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ _ ١٩٨٣م .

_ المفصل في علم العربية، جار الله الزمخشري، دار الجيل _ بيروت .

_ النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، ١٩٨٦م

_النحو والتفسير أُصول نظرية ونماذج تطبيقية، مولاي مصطفى أبو حازم، منشورات المطبعة

والوراقة الوطنية مراكش، ٢٠١٥م.
_ النحو وكتب التفسير، إبراهيم عبد الله رفيدة ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط٣، ١٩٩٠ .
_ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف _ القاهرة، ط٩، ج١، د.ت.
_ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الإمام فخر الدين الرازي، دراسة وتحقيق : د. بكري شيخ أمين دار العلم للملايين _ بيروت، ط١، ١٩٨٥م .
الرسائل الجامعية والأطاريح :
_ تحليل الخطاب في كتاب سيبويه (دراسة في الآليات والمرجعيات)، أُطروحة دكتوراه قدَّمها الباحث : رحيم مجيد راضي، إلى مجلس كلية الآداب _ الجامعة المستنصرية ، ١٤٤٠هـ _ ٢٠١٩م

البحوث والمقالات :

_ أثر الدراسة الحديثية في المنهج النحوي عند سيبويه، د. بان صالح مهدي ، مجلة العميد، المجلد الثاني/ العددان الثالث والرابع ، تشرين الثاني / ٢٠١٢ .
_ أثر المرجعية الحديثية في المصطلح السيبويهي (بحث) للدكتور : عبد العزيز احميد، دراسات مصطلحية، العدد الأول، ١٤٢٢هـ_ ٢٠٠١م .
_ أثر سيبويه في الدرس الأُصولي، د. عادل فتحي رياض، ضمن كتب مؤتمر قسم النحو الدولي السادس (كلية دار العلوم)، القاهرة، ٢٠١٠م .
_ جهود سيبويه في التفسير، د. محمد أحمد الخراط، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، السنة الأُولى، عد : ١، ١٤٢٧هـ_ ٢٠٠٦م .
_ التزام سيبويه الديني مظاهره وأثره، د. عبد الله بن محمد بن جار الله النعيمشي، ضمن أعمال الندوة العلمية الموسومة بـ (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) التي نظمتها شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بتطوان ١٤_١٥ ربيع لأول ١٤٣٨هـ _ ٢٠١٦م .
_ لغة القرآن الكريم في نظرية سيبويه النحوية ، د. نصر الدين وهابي، ضمن أعمال الندوة العلمية الموسومة بـ (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) التي نظمتها شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بتطوان ١٤_١٥ ربيع لأول ١٤٣٨هـ _ ٢٠١٦م .
_ مركزية سيبويه في الثقافة العربية، أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظَّمتها شعبة اللغة العربية

وآدابها، بكلية الآداب بتطوان ١٤_ ١٥ ربيع الأول ١٤٣٨هـ _ ٢٠١٦م .
_ ملاحظات حول رسالة سيبويه في الكتاب، المنصف عاشور، مشروع قراءة في النظريات النحوية العربية، بحث منشور في الحوليات التونسية، العدد ٣٠، ١٩٨٩م .
_ ملامح التفسير في كتاب سيبويه، د. عادل فائز، ضمن أعمال الندوة الموسومة بـ (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) التي نظمتها كلية الآداب _ تطوان، ٢٠١٦م .
_ نحو كتاب سيبويه، د. علي بن موسى بن محمد بن شبير، ضمن أعمال الندوة الموسومة بـ (مركزية سيبويه في الثقافة العربية) التي نظمتها كلية الآداب _ تطوان، ٢٠١٦م.